" درء السيئة بالحسنة "

ومن الأخلاق التى وجهنا إليها القرآن " درء السيئة بالحسنة "وهى خلة المؤمنين الاتقياء ، وصفة المسلمين الأصفياء ، الذين يخشون ربهم بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون .

فيقول الحق سبحانه :- ﴿ وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ ﴾ [سورة الرعد:٢٢]

والمعنى : "والذين صبروا على المكاره ابتغاء مرضاة الله وأدوا الصلاة المفروضة في أوقاتها " ان الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً " وانفقوا من أموالهم في سبيل الله، تلك النفقة التى أوجبها الله عليهم فى الخفاء والعلانية ويدفعون الجهل بالحلم ، والأذى بالصبر، يقول بن عباس . رضى الله عنهما . " يدفعون بالعمل الصالح السئ من الأعمال " والمعنى أنهم يفعلون الحسنات ليدرءوا بها السيئات .

ويقول بن عباس . رضى الله عنهما . " يدفعون بالحسن من الكلام ما يرد عليهم من سوء غيرهم " .

والمراد بالإنفاق سراً وعلانيةً ، سراً يكون بينه وبين ربه سبحانه ، وعلانيةً بحيث يراه الناس ، وذلك ليكون أسوة حسنة لهم ، لا فخراً ورياءً . سواء كان الانفاق واجب على المسلم مثل الإنفاق على الزوجة ، والولد ، والأقارب ، والفقراء ام مندوبا مثل الإنفاق على الفقراء ، والمعوزين ، والمحتاجين من الأجانب.

ومنه قوله- ﷺ - لسيدنا معاذ بن جبل . رضى الله عنه . " واتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن " أولئك لهم عقبى الدار يعنى لهم العاقبة الحسنة المحمودة في الدار الآخرة ، والفوز برضوان الله سبحانه وهوالجنة . يقول الله تعالى:- ﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ..... ﴾[سورة الرعد:٢٣] والمراد جنات إقامة خالدة يدخلها اولئك الأبرار ، ومن كان صالحاً من آبائهم ونسائهم ، وأولادهم، وذلك للأنس بهم ، وفيهم السرور بهم ،حتى ولو لم يكونوا لا يستحقون هذه المنزلة بأعمالهم ، فيرفع الله منازلهم إكراماً لأولئك ، وذلك فضل الله الذى يؤتيه من يشاء والله ذوالفضل العظيم ، والكرم العميم ، ثم إن لهم إكراما آخر بينه الله سبحانه في قوله تعالى:- ﴿ ..... وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾ ﴾[سورة الرعد: ٢٣:٢٤] اى والملائكة يدخلون عليهم للتهنئة من كل باب من ابواب الجنة يقولون لهم " سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ " يعنى لقد سلمتم من الجن ونجوتم من

المحن وذلك بصبركم الجميل " فصبر جميل " في الدنيا ، فلئن كنتم أوذيتم في الدنيا فلقد استرحتم في هذا اليوم يوم لقاء الله سبحانه ، والفوز برضوانه ، وتلك بشارة بدوام السلامة فنعمتهم العافية الحميدة وهى عاقبتكم وهى الجنة .

يقول ابن كثير -رحمه الله- يقول الله تعالى مخبراً عمن اتصف بهذه الصفات الحميدة بأن لهم عقبى الدار ، وهى العافية والنصرة في الدنيا والآخرة يقول سبحانه :- ﴿ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [سورة الرعد:٢٠]

وليسوا مثل المنافقين الذين إذا عاهد أحدهم غَدَر ، وإذا خاصم فجر ، وإذا حدث كذب ، وإذا ائتُمن خان . الذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل من صلة الأرحام والإحسان إليهم ، والى الفقراء ، والمحتاجين ، وبذل المعروف ، ويخشون ربهم فيما يأتون وما يذرون من الأعمال ، ويراقبون الله في ذلك ويخافون سوء الحساب في الدار الآخرة .

فلهذا أمرهم بالاستقامة في جميع حركاتهم وسكناتهم ، وجميع أحوالهم والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم عن المحارم والمناكر ، واجتراح السيئات واقتراف الآثام ، فامتنعوا عنها ونأوا عن ارتكابها ابتغاء مرضاة الله سبحانه ، وانفقوا من أموالهم على من يجب عليهم الانفاق من الأجانب ، والأقارب من الفقراء والمحاويج ، والمعوزين ، والمساكين ، وأبناء السبيل ، سراً وعلانيةً مع دفعهم القبح بالحسن ، ومقابلة المنكر بالمعروف ، صبراً ، واحتمالاً ، وعفواً ، وصفحاً .

يقول تعالى: ﴿ ..... ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ [سورة فُصِّلَت٣٤:٣٥]

ولهذا قال الله سبحانه عن هؤلاء السعداء في الدار الآخرة ، والذين اتصفوا بهذه الصفات الحميدة الجميلة بأن لهم عقبى الدار ، ثم فسر ذلك بقوله تعالى :- ﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾ ﴾ [سورة الرعد: ٢٣:٢٤]

ومعنى " عدن " العدن هى الإقامة الدائمة .

يعنى جنات إقامة دائمة مستمرة لا تنقطع عنهم ، وهم فيها خالدون .

وعن سيدنا " عبد الله بن عمرو" . رضى الله عنهما - قال : " إن في الجنة قصر يقال له عدن حوله البرج والمرج فيه خمسة آلاف باب ، على كل باب خمسة آلاف حيرة لا يدخله إلاَّ نبي ، اوصديق ، أو شهيد . ويقول الضحاك جنات عدن مدينة الجنة ، فيها الرسل، والأنبياء ، والشهداء وأئمة الهدى ، والناس حولهم بعد ، والجنات حولها ، ويجمع

الله بينهم ، وبين أحبابهم فيها من الآباء ، والأهلين ، والأبناء فمن هوصالح لدخول الجنة من المؤمنين ، وذلك لتقر أعينهم بهم ، حتى انه ترفع درجة الأدنى إلى درجة الأعلى امتنانا من الله وإحسانا من غير تنقيص للأعلى عن درجته.

كما قال الله تعالى:- ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖۚ .... ﴾ [سورة الطور: ٢١]

وقوله سبحانه :﴿ ..... وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ٢٣ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ٢٤ ﴾[سورة الرعد: ٢٣:٢٤]

فالملائكة يدخلون عليهم للتهنئة بدخول الجنة ، فعند دخولهم الجنة تفد عليهم الملائكة مهنئين لهم بما حصل لهم من الله من التقريب والإنعام ، والإقامة فى دار السلام ، في جوار الصديقين ، والأتقياء والرسل الكرام .

عن عبد الله عمروبن العاص- رضى الله عنهما - انه قال :-

" هل تدرين أول من يدخل الجنة من خلق الله ، الفقراء المهاجرين الذين تسد بهم الثغور ، وتنقى بهم المكاره ، ويموت أحدهم وحاجته في صدره لا يستطيع لها قضاء .

فيقول الله تعالى لمن يشاء من ملائكته " ائتوهم فحيوهم " فيقول الملائكة نحن سكان سمائك ، وخيرتك من خلقك ، أفتأمرنا أن نأتى هؤلاء ونسلم عليهم ؟ فيقول الله تعالى لملائكته إنهم كانوا عباداً يعبدونني لا يشركون بى شيئاً ، وتسد بهم الثغور ، وتنقى بهم المكاره ، ويموت أحدهم وحاجته في صدره لا يستطيع لها قضاء ، قال فتأتيهم الملائكة عند ذلك فيدخلون عليهم من كل باب ﴿ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ٢٤ ﴾ [سورة الرعد: ٢٤].

وعن عبد الله بن عمروبن العاص - رضى الله عنهما - عن النبى - ﷺ - قال "أول ثلة يدخلون الجنة فقراء المهاجرين الذين تنقى بهم المكاره ، وإذا أمروا سمعوا وأطاعوا ، وإن كانت لرجل منهم حاجة الى سلطان لم تقض حتى يموت وهى في صدره ، وإن الله يدعو يوم القيامة الجنة فتاتي بزخرفها وزينتها فيقول أين عبادى الذين قاتلوا في سبيلي ، وأوذوا في سبيلي وجاهدوا في سبيلي، ادخلوا الجنة بغير عذاب ، ولا حساب ، وتأتى الملائكة فيسجدون ويقولون ربنا نحن نسبح بحمدك اللَّيل والنهار ، ونقدس لك من هؤلاء الذين آثرتهم علينا ؟

فيقول الرب-عزوجل- هؤلاء عبادى الذين جاهدوا في سبيلي ، وأوذوا في سبيلي ، فتدخل عليهم الملائكة من كل باب سلام عليكم فنعم عقبى الدار ، وفي الحديث أن رسول

الله - ﷺ - كان يزور قبور الشهداء في رأس كل حول فيقول لهم: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾ [سورة الرعد: ٢٤] وفي ذات المعنى يقول الله - عزوجل- ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [سورة المؤمنون:٩٦]

والمعنى: ادفع إساءتهم بالصفح والعفوعنهم، وتحمل بمكارم الأخلاق.

يقول بن كثير - رحمه الله- أرشده الى الترياق النافع من مخالطة الناس، وهو الإحسان إلى من يسئ اليه ليستجلب خاطره، فتعود عداوته صداقة وبغضه محبة، وهو كما قال فى آيه أُخرى :-﴿.....ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [سورة فُصِّلَت٣٤:٣٥]

يعنى وما يلهم هذه وتلك الصفة إلاّ الذين صبروا على أذى الناس فعاملون بالاحسان مع أنهم أسدوا إليهم العمل السئ القبيح، وما يلقاها إلاَّ ذوحظ عظيم فى الدار الآخرة. ﴿.....نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [سورة المؤمنون:٩٦]

يعنى نحن أعلم بحالهم وما يكون منهم من التكذيب، والاستهزاء وسيجازيهم عليه، والله سبحانه أرشدهم إلى الترياق النافع لهم في دنياهم، وفي أُخراهم في مخالطتهم للناس، وهوإحسان المسلم لمن يسئ إليه، حتى تعود عداوته صداقة، وعنفه لينا، وبغضه محبة، وكراهيته مودة، يقول الشاعر:

أحسن الى الناس تستعبد قلوبهم ... فطالما استعبد الإنسان إحسان

هكذا يمضى القرآن الكريم في الحث على الخلق الفاضل، والذي يأخذ بيد المسلم إلى الطريق القويم، وبذلك يضمن له هذا الخُلُق حسن الخاتمة وذلك بدخول الجنة، وتحايا الملائكة المقربين في جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها فنعم عقبى الدار[1]

---

1 - سورة المؤمنون آيه رقم ٩٦.
- القرطبي ج٩ ص ٣١١.
- صفوة التفاسير ج٢ ص٨١.
- تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج٢ ص ٥١٠.
- تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج٢ ص ٢٥٤.
- مختصر تفسير ابن كثير ج٢ ص ٥٧٣.
- البحر المحيط ج٦ ص ٤٢٠.
- تفسير المراغى ج٦ ص ٥٢، وج٥ ص ٩٣ – ٩٥.
- تفسير القرطبى ج٥ ص ٣٥٣٩ وما بعدها.